

محمود درویش

# أحمد الزعتر

لِيَدَيْنِ مِنْ حَجَرٍ وَزَعْتَرٍ  
هَذَا النَّشِيدُ .. لِأَحْمَدَ الْمَنْسِيِّ بَيْنَ فَرَأَشَتَيْنِ  
مَصَّتِ الْعُيُومُ وَشَرَّدَتْنِي  
وَرَمَتْ مَعَاظِفَهَا الْجِبَالَ وَخَبَّأَتْنِي  
نَازِلًا مِنْ نَحْلَةِ الْجُرْحِ الْقَدِيمِ إِلَى تَفَاصِيلِ  
الْبِلَادِ وَكَانَتْ السَّنَةُ أَنْفِصَالَ الْبَحْرِ عَنْ مُدُنِ  
الرَّمَادِ وَكُنْتُ وَحْدِي  
ثُمَّ وَحْدِي ...  
أَهْ يَا وَحْدِي؟ وَأَحْمَدُ  
كَانَ اغْتِرَابَ الْبَحْرِ بَيْنَ رِصَاصَتَيْنِ  
مُخَيَّمًا يَنْمُو، وَيُنْجِبُ زَعْتَرًا وَمُقَاتِلِينَ  
وَسَاعِدًا يَشْتُدُّ فِي النَّسِيَانِ  
ذَاكِرَةً تَجِيءُ مِنَ الْقَطَارَاتِ الَّتِي تَمْضِي  
وَأَرْصَفَةً بِلَا مُسْتَقْبَلِينَ وَيَاسَمِينَ  
كَانَ اكْتِشَافَ الذَّاتِ فِي الْعَرَبَاتِ

أَوْ فِي الْمَشْهَدِ الْبَحْرِيِّ  
 فِي لَيْلِ الزَّنَازِينِ الشَّقِيقَةِ  
 فِي الْعَلَاقَاتِ السَّرِيعَةِ  
 وَالسُّوَالِ عَنِ الْحَقِيقَةِ  
 فِي كُلِّ شَيْءٍ كَانَ أَحْمَدُ يَلْتَمِي بِنَقِيضِهِ  
 عِشْرِينَ عَامًا كَانَ يَسْأَلُ  
 عِشْرِينَ عَامًا كَانَ يَرْحَلُ  
 عِشْرِينَ عَامًا لَمْ تَلِدْهُ أُمُّهُ إِلَّا دَقَائِقَ فِي  
 إِنَاءِ الْمُوزِ  
 وَأَنْسَحَبَتْ.  
 يُرِيدُ هُوِيَّةً فَيَصَابُ بِالْبُرْكَانِ،  
 سَافَرَتِ الْغُيُومُ وَشَرَّدَتْنِي  
 وَرَمَتْ مَعَاطِفَهَا الْجِبَالَ وَحَبَّأَتْنِي



أَنَا أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ - قَالَ  
 أَنَا الرَّصَاصُ الْبُرْتُقَالُ الذُّكْرِيَّاتُ  
 وَجَدْتُ نَفْسِي فُزِبَ نَفْسِي  
 فَابْتَعَدْتُ عَنِ النَّدَى وَالْمَشْهَدِ الْبَحْرِيِّ  
 تَلُّ الزَّرْعَتِ الْحَيْمَةَ  
 وَأَنَا الْبِلَادُ وَقَدْ أَتَتْ

وَتَقَمَّصَنِي  
وَأَنَا الدَّهَابُ الْمُسْتَمِرُّ إِلَى الْبِلَادِ  
وَجَدْتُ نَفْسِي مِلءَ نَفْسِي ...



رَاحَ أَحْمَدُ يَلْتَقِي بِضُلُوعِهِ وَيَدِيهِ  
كَانَ الْخُطْوَةَ - النَجْمَةَ  
وَمِنَ الْمَحِيطِ إِلَى الْخَلِيجِ، مِنَ الْخَلِيجِ إِلَى الْمَحِيطِ  
كَانُوا يُعَدُّونَ الرَّمَاحَ  
وَأَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ يَصْعَدُ كَيْ يَرَى حَيْفًا  
وَيَقْفِزَ.

أَحْمَدُ الْآنَ الرَّهِينَةُ  
تَرَكَتْ شَوَارِعَهَا الْمَدِينَةَ  
وَأَتَتْ إِلَيْهِ  
لِتَقْتُلَهُ

مِنَ الْخَلِيجِ إِلَى الْمَحِيطِ، مِنَ الْمَحِيطِ إِلَى الْخَلِيجِ  
كَانُوا يُعَدُّونَ الْجَنَازَةَ  
وَائْتِخَابَ الْمُقْصَلَةَ



أَنَا أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ - فَلْيَأْتِ الْحِصَارُ

جَسَدِي هُوَ الْأَسْوَارُ - فَلْيَأْتِ الْحِصَارُ  
 وَأَنَا حُدُودُ النَّارِ - فَلْيَأْتِ الْحِصَارُ  
 وَأَنَا أَحَاصِرُكُمْ  
 أَحَاصِرُكُمْ  
 وَصَدْرِي بَابُ كُلِّ النَّاسِ - فَلْيَأْتِ الْحِصَارُ



لَمْ تَأْتِ أُعْنِيَّتِي لِتُرْسَمَ أَحْمَدَ الْكُحْلِيَّ فِي الْخُنْدُقِ  
 الذِّكْرِيَّاتُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَهُوَ يَوْمُ الشَّمْسِ وَالزَّيْبُقِ  
 يَا أُمَّهَا الْوَالِدِ الْمَوْزِعِ بَيْنَ نَافِذَتَيْنِ  
 لَا تَتَّبَادَلَانِي رَسَائِلِي  
 قَاوِمٌ  
 إِنَّ التَّشَابَهَ لِلرَّمَالِ ... وَأَنْتَ لِلْأَزْرَقِ



وَأَعُدُّ أَضْلَاعِي فَيَهْرُبُ مِنْ يَدِي بَرْدَى  
 وَتَتْرُكُنِي ضِفَافُ النَّيْلِ مُبْتَعِدَا  
 وَأَبْحَثُ عَنْ حُدُودِ أَصَابِعِي  
 فَأَرَى الْعَوَاصِمَ كُلَّهَا زَبَدَا...



وَأَحْمَدُ يَهْرُكُ السَّاعَاتِ فِي الْخُنْدُقِ

لَمْ تَأْتِ أُعْنِيَّتِي لِتَرْسَمَ أَحْمَدَ الْمَحْرُوقَ بِالْأَزْرَقِ  
هُوَ أَحْمَدُ الْكُوْنِيُّ فِي هَذَا الصَّفِيحِ الصَّيِّقِ  
الْمُتَمَرِّقِ الْحَالِمِ  
وَهُوَ الرَّصَاصُ الْبُرْنَقَالِيُّ .. الْبِتْفَسَجَةِ الرَّصَاصِيَّةِ  
وَهُوَ إِنْدِلَاعُ ظَهِيرَةِ حَاسِمِ  
فِي يَوْمِ حُرْبِهِ



يَا أُمَّيَا الْوَالِدِ الْمُكْرَسِ لِلنَّدَى  
قَاوِمُ!  
يَا أُمَّيَا الْبَلَدِ - الْمُسَدَّسِ فِي دَمِي  
قَاوِمُ!  
الآنُ أُمِّلُ فِيكَ أُعْنِيَّتِي  
وَأَذْهَبُ فِي حِصَارِكَ



الآنُ أُمِّلُ فِيكَ أَسْئَلِي  
وَأُولَدُ مِنْ غُبَارِكَ  
فَأَذْهَبُ إِلَى قَلْبِي تَجِدُ شَعْبِي  
شُعُوبًا فِي إِنْفِجَارِكَ



... سَائِرًا بَيْنَ التَّفَاصِيلِ اشْتَكَاثٌ عَلَى مِيَاهِ  
فَانْكَسَرْتُ

أَكَلَّمَا نَهَدْتُ سَفَرَجَلَةً نَسِيتُ حُدُودَ قَلْبِي  
والتَّجَأْتُ إِلَى حِصَارِ كَيْ أُحَدِّدَ قَامَتِي  
يَا أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ؟

لَمْ يَكْذِبْ عَلَيَّ الْحُبُّ. لَكِنْ كَلَّمَا جَاءَ الْمَسَاءُ  
إِمْتَصَّنِي جَرَسٌ بَعِيدٌ وَالتَّجَأْتُ  
إِلَى نَزْفِي كَيْ أُحَدِّدَ صُورَتِي  
يَا أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ.

لَمْ أَغْسِلْ دَمِي مِنْ خُبْرِ أَعْدَائِي  
وَلَكِنْ كَلَّمَا مَرَّتْ خُطَايَا عَلَى طَرِيقِ  
فَرَّتِ الطُّرُقُ الْبَعِيدَةُ وَالْقَرِيبَةُ  
كَلَّمَا آخَيْتُ عَاصِمَةً رَمْتَنِي بِالْحَقِيبَةِ  
فَالْتَجَأْتُ إِلَى رَصِيفِ الْحُلْمِ وَالْأَشْعَارِ  
كَمْ أَمْشِي إِلَى حُلْمِي فَتَسْبِقُنِي الْخَنَاجِرُ  
آهٍ مِنْ حُلْمِي وَمِنْ رُومَا!

جَمِيلٌ أَنْتَ فِي الْمُنْعَى  
فَتِيلٌ أَنْتَ فِي رُومَا  
وَحَيْفًا مِنْ هُنَا بَدَأَتْ  
وَأَحْمَدُ سَلَّمَ الْكَرْمَلُ

وَبَسْمَلَةَ النَّدى وَالرَّعْتَرِ الْبَلْدِيِّ وَالْمَنْزِلُ  
لَا تَسْرِقُوهُ مِنَ الشُّنُونُو  
لَا تَأْخُذُوهُ مِنَ النَّدى  
كَتَبَتْ مَرَاثِمَهَا الْعُمُونَ  
وَتَرَكَتْ قَلْبِي لِلصَّدى  
لَا تَسْرِقُوهُ مِنَ الْأَبْدِ  
وَتُبْعَثَرُوهُ عَلَى الصَّلِيبِ  
فَهُوَ الْحَرِيطَةُ وَالْجَسَدُ  
وَهُوَ اِشْتِعَالُ الْعَنْدَلِيبِ  
لَا تَأْخُذُوهُ مِنَ الْحَمَامِ  
لَا تُرْسِلُوهُ إِلَى الْوَضِيفَةِ  
لَا تَرْسُمُوا دَمَهُ وَسَامِ  
فَهُوَ الْبَنْفَسُجُ فِي قَدِيقِهِ



صَاعِدًا نَحْوَ الْبَيْتَامِ الْحَلْمِ  
تَتَّخِذُ التَّفَاصِيلُ الرَّدِيئَةَ شَكْلَ كَثْرَى  
وَتَنْفَصِلُ الْبِلَادُ عَنِ الْمَكَاتِبِ  
وَالْحَيْوَلُ عَنِ الْحَقَائِبِ  
لِلْحَصَى عَرَقٌ أَقْبَلُ صَمْتِ هَذَا الْمَلْحِ  
أُعْطِي حُطْبَةَ الْيَمُونِ لِلْيَمُونِ

أَوْقُدْ شَمْعَتِي مِنْ جُرْحِي الْمَفْتُوحِ لِلأَزْهَارِ  
 وَالسَّمَكِ الْمُجَفَّفِ  
 لِلْحَصَى عَرَقٌ وَمِرَاةٌ  
 وَلِلْحَطَّابِ قَلْبٌ يَمَامَةٌ  
 أَنْسَاكِ أحيانًا لِيُنْسَانِي رِجَالُ الأَمْنِ  
 يَا أَمْرَاتِي الْجَمِيلَةَ تَقْطَعِينَ القَلْبَ وَالْبَصَلَ  
 الطَّرِيَّ وَتُدْهِبِينَ إِلَى البَنْفَسَجِ  
 فَاذْكُرِينِي قَبْلَ أَنْ أُنْسَى يَدَيَّ



.. وَصَاعِدًا نَحْوَ التِّبَّامِ الحَلْمِ  
 تَنْكَمِشُ المَقَاعِدُ تَحْتَ أَشْجَارِي وَظِلِّكَ  
 .. يَخْتَفِي المَتَسَلِّقُونَ عَلَى جِرَاحِكِ كَالذَّبَابِ المُوَسِمِيِّ  
 وَيَخْتَفِي المَتَقَرِّجُونَ عَلَى جِرَاحِكِ  
 فَاذْكُرِينِي قَبْلَ أَنْ أُنْسَى يَدَيَّ!  
 وَلِلْفَرَاشَاتِ اجْتِهَادِي  
 وَالصُّخُورِ رَسَائِلِي فِي الأَرْضِ  
 لَا طَرِوَادَةَ بَيْتِي  
 وَلَا مَسَادَةَ وَقْتِي  
 وَأَصْعَدُ مِنْ جَفَافِ الحَبْزِ وَالْمَاءِ المِصَادِرِ  
 مِنْ حِصَانِ صَاعٍ فِي دَرْبِ المِطَارِ



وَمِنْ هَوَاءِ الْبَحْرِ أَصْعَدُ  
 مِنْ شَطَايَا أَدَمَّتْ جَسَدِي  
 وَأَصْعَدُ مِنْ عُيُونِ الْقَادِمِينَ إِلَى عُرُوبِ السَّهْلِ  
 أَصْعَدُ مِنْ صَنَادِيقِ الْخِصَارِ  
 وَقُوَّةِ الْأَشْيَاءِ أَصْعَدُ  
 أَنْتَمِي لِسَمَايِ الْأُولَى وَلِلْفُقَرَاءِ فِي كُلِّ الْأَرْقَةِ  
 يُنْشِدُونَ:  
 صَامِدُونَ  
 وَصَامِدُونَ  
 وَصَامِدُونَ



كَانَ الْمُحَيِّمُ جِسْمَ أَحْمَدَ  
 كَانَتْ دِمَشْقُ جُفُونَ أَحْمَدَ  
 كَانَ الْحِجَازُ ظِلَالِ أَحْمَدَ  
 صَارَ الْحِصَارُ مُرُورَ أَحْمَدَ فَوْقَ أَفْتِدَةِ الْمَلَائِكِينَ  
 الْأَسِيرَةَ  
 صَارَ الْحِصَارُ هُجُومَ أَحْمَدَ  
 وَالْبَحْرُ طَلَقْتَهُ الْأَخِيرَةَ!  
 يَا خَصَرَ كُلِّ الرِّيحِ  
 يَا أُسْبُوعَ سُكَّرِ!

يَا إِسْمَ الْعِيُونِ وَيَا رُخَايِي الصَّدَى

يَا أَحْمَدُ الْمَوْلُودُ مِنْ حَجْرٍ وَرَعْتَرٍ

سَتَقُولُ: لَا

سَتَقُولُ: لَا

جِلْدِي عَبَاءَةٌ كُلُّ فَلَّاحٍ سَيَأْتِي مِنْ حُقُولِ التَّبَغِ

كِي يُلْغِي الْعَوَاصِمَ

وَتَقُولُ: لَا

وَتَمُوتُ قُرْبَ دَمِي وَتَحْيَا فِي الطَّحِينِ

وَتَزُورُ صَمْتِكَ حِينَ تَطْلُبُنَا يَدَاكَ

وَحِينَ تُشْعِلُنَا الْيِرَاعَةَ

مَشَتْ الْخَيْوَلُ عَلَى الْعَصَافِيرِ الصَّغِيرَةِ

فَأَيْتَكَرْنَا الْيَاسَمِينَ

لِيُغَيِّبَ وَجْهَ الْمَوْتِ عَنْ كَلِمَاتِنَا

فَإِذْهَبْ بَعِيدًا فِي الْعَمَامِ وَفِي الزَّرْعَةِ

لَا وَقْتٌ لِلْمَنْفَى وَأُغْنِيَتِي...

سَيَجْرِفُنَا زَحَامُ الْمَوْتِ فَإِذْهَبْ فِي الرَّحَامِ

لِنُصَابِ بِالْوَطَنِ الْبَسِيطِ وَبِأَحْتِمَالِ الْيَاسَمِينَ

وَإِذْهَبْ إِلَى دَمِكَ الْمَهْيَأِ لِأَنْتِشَارِكَ

وَإِذْهَبْ إِلَى دَمِي الْمَوْحَدِ فِي حِصَارِكَ

لَا وَقْتٌ لِلْمَنْفَى...

وَاللُّصُورِ الْجَمِيلَةِ فَوْقَ جُدْرَانِ الشُّوَارِعِ وَالْجَنَائِزِ  
وَالْتَّمَنِي  
كَتَبْتَ مَرَايِبَهَا الطُّيُورُ وَشَرَّدْتَنِي  
وَرَمَتْ مَعَاظِفَهَا الْحَقُولُ وَجَمَعْتَنِي  
فَأَذْهَبُ بَعِيدًا فِي دَمِي!  
وَأَذْهَبُ بَعِيدًا فِي الطَّحِينِ  
لِنُصَابِ بِالْوَطَنِ الْبَسِيطِ وَيَا حَتْمَالِ الْيَاسْمِينِ



يَا أَحْمَدُ الْيَوْمِي!  
يَا اسْمَ الْبَاحِثِينَ عَنِ النَّدَى وَبَسَاطَةِ الْأَسْمَاءِ  
يَا اسْمَ الْبُرْتُقَالَةِ  
يَا أَحْمَدُ الْعَادِي!  
كَيْفَ مَحَوْتَ هَذَا الْفَارِقَ الْفُظِّيَّ بَيْنَ الصَّخْرِ وَالثَّقَاخِ  
بَيْنَ الْبُنْدُقِيَّةِ وَالْعَزَالَةِ!



لَا وَقْتَ لِلْمَنْفَى وَأُغْنِيَتِي..  
سَتَذْهَبُ فِي الْحِصَارِ  
حَتَّى نِهَايَاتِ الْعَوَاصِمِ  
فَأَذْهَبُ عَمِيقًا فِي دَمِي

إِذْهَبْ بَرَاعِمُ  
وَأَذْهَبْ خَوَاتِمُ  
وَأَذْهَبْ عَمِيقًا فِي دَمِي  
إِذْهَبْ سَلَامُ



يَا أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ.. قَاوِمُ!  
لَا وَقْتٌ لِلْمَنْفَى وَأُعْنِيَّتِي..  
سَنَذْهَبُ فِي الْحِصَارِ  
حَتَّى رَصِيفِ الْخَبْزِ وَالْأَمْوَاجِ  
تِلْكَ مَسَاحَتِي وَمَسَاحَةُ الْوَطَنِ - الْمُلَازِمِ  
مَوْتُ أَمَامِ الْحُلْمِ  
أَوْ حُلْمٍ يَمُوتُ عَلَى الشُّعَارِ  
فَأَذْهَبْ عَمِيقًا فِي دَمِي وَأَذْهَبْ عَمِيقًا فِي الطَّحِينِ  
لِنُصَابِ الْوَطَنِ الْبَسِيطِ وَيَاخْتِمِ الْيَاسْمِينِ...



وَلَهُ إِحْنَاءَاتُ الْحَرِيفِ  
لَهُ وَصَايَا الْبُرْتُقَالِ  
لَهُ الْقَصَائِدُ فِي التَّرْيِيفِ  
لَهُ تَجَاعِيدُ الْجِبَالِ

لَهُ الْهَتَافُ  
لَهُ الرَّفَافُ  
لَهُ الْمَجَلَّاتُ الْمَلَوَّةُ  
الْمِرَاثِي الْمَطْمِئِنَّةُ



مُلَصَّقاتُ الْحَائِطِ  
الْعَلْمُ  
التَّقَدُّمُ  
فِرْقَةُ الْإِنْشَادِ  
مَرْسُومُ الْحِدَادِ  
وَكُلُّ شَيْءٍ  
كُلُّ شَيْءٍ  
كُلُّ شَيْءٍ  
حِينَ يُعْلِنُ وَجْهَهُ لِلدَّاهِبِينَ إِلَى مَلَامِحِ وَجْهِهِ  
يَا أَحْمَدُ الْمَجْهُولُ!  
كَيْفَ سَكَنَتْنَا عِشْرِينَ عَامًا وَاحْتَفَيْتَ  
وَوَظَلَّ وَجْهَكَ غَامِضًا مِثْلَ الظُّهَيْرِ  
يَا أَحْمَدُ السِّرِّيِّ مِثْلَ النَّارِ وَالْغَابَاتِ  
أَشْهَرُ وَجْهَكَ الشَّعْبِيِّ فِينَا  
وَأَقْرَأُ وَصِيَّتَكَ الْأَخِيرَةَ؟

يَا أَيُّهَا الْمُتَفَرِّجُونَ!  
تَنَازَرُوا فِي الصَّمْتِ  
وَابْتَعِدُوا قَلِيلًا عَنْهُ كِي تَجِدُوهُ فِيكُمْ  
حِنْطَةً وَيَدَيْنِ عَارِيَتَيْنِ  
وَابْتَعِدُوا قَلِيلًا عَنْهُ كِي يَتْلُو وَصِيَّتَهُ  
عَلَى الْمَوْتَى إِذَا مَاتُوا  
وَكِي يَزِمِي مَلَامِحَهُ  
عَلَى الْأَحْيَاءِ إِنْ عَاشُوا!  
أَخِي أَحْمَدُ!  
وَأَنْتَ الْعَبْدُ وَالْمَعْبُودُ وَالْمَعْبُدُ  
مَتَى تَشْهَدُ  
مَتَى تَشْهَدُ  
مَتَى تَشْهَدُ؟

نبأ  
النشر الباشفاكي العربي  
تونس 2012